

ماذا يشرب الأطفال

ديوان السندباد



احمد بوزفور

في البداية لم يكن الحادث يثير غير الضحك، كان الرجال يقهقهون حتى تتشوه وجوههم وتدمع أعينهم، أما النساء فقد كن يتناقلن الحديث متهامسات، ويضحكن في خفوت وقد احمرت وجناتهن ووارين نظراتهن خوف أن يسمعن الرجال. وقد كان الحادث مضحكا فعلا. وربما بدا للبعض سخيلا وتافها لا يستحق الضجة التي أثارها، غير أن الشيوخ والأعيان وأعضاء الجماعة القروية وآباء التلاميذ أجمع رأيهم في الأخير على أن المسألة خطيرة جدا وأنها تستلزم تصرفا حاسما وسريعا وإلا أفلت الأمر من أيدي العقلاء وغرقت الدواوير كلها في السببية والفساد... ولكن ما هو الحادث بالضبط؟ وماذا وقع في دار الحاج عبد القادر التي خرجت منها الشائعة في تلك الليلة الباردة الممطرة؟

كانت الحجرة الخارجية في الدار قد أعدت بسرعة قبيل الغروب في انتظار الضيوف. شطّبت أولا من التراب والغبار، وفرشت البسط، وفوقها فرشت الزربية الجديدة، ومدت البطانيات في أطراف الزربية ووضعت الوسائد. وكان الحاج عبد القادر يعد مقادير متساوية من الماء الساخن للوضوء في أوان صغيرة حين قدم أوائل الضيوف. كان يعرف ماذا يريدون ولكنه لم يكن يعرف بدقة كيف سينتهي الأمر في الأخير، وكان يقول لنفسه وهو يصب الماء: هو الذي دفع الشرفاء للتدخل، إنه يخاف مني، هل أكون صلبا هذه الليلة؟ وإلى أي حد؟ وكان الشرفاء قد وصلوا ووصل معهم إمام المسجد وبعض الشيوخ وأربعة أو خمسة من الطامعين في مرقعة العشاء. وأخيرا وصل خصم الحاج عبد القادر، كان ينبغي أن يصل مع الناس، ولكنه أراد أن يتدلل كما يبدو.

كل الناس يعرفون "حمادي". بدأ خماسا، ومع الحاج عبد القادر نفسه، ولكنه رجل بخيل شحيح، ويدخل رجله في كل حفرة، يتابع الخمس ويبيع "الفاخر" الذي يحضره في الغابة، ويرعى الماشية بالربع، وأولاده الثلاثة يرعون للناس، ويرد كل واحد منهم على أبيه المبلغ الفلاني سنويا، وهكذا أخذ يشتري الأرض ويغير رجام الحدود، ويبعث حقوقا قديمة وقرابات منسية، ويزاحم أصحاب الملك والأصول. ولكنه هذه المرة وقع مع الحاج عبد القادر، وقد أقسم بكل الأيمان أنه لن يتراجع ولو وصل الأمر إلى الرباط، وحرث الأرض، وجاء حمادي فأعاد حرثها، وكادت الأرواح تسقط، وسجل كل واحد منهما دعوى وهامم الشرفاء يتدخلون، فكيف سينتهي الأمر في الأخير؟

صلى إمام المسجد المغرب بالضيوف، وصلى معهم الحاج عبد القادر بعد أن شده أحد الشرفاء في حزم صامت من كمه وأوقفه في الصف إلى جانب حمادي، وكان الظلام قد انتشر حين وضعت الصينية الكبيرة في الوسط أمام الفقيه السي بن علي، وأدخلت المجامر وارتفع اللغط، ولم يكن الطفل قد وصل بعد.

خرج مع الأطفال من المدرسة في الخامسة، وكان عليه أن يسير مع أطفال دواره خمسة كيلومترات في الظلام والمطر والبرد.. ولذلك لم يصل إلى الدار حتى كان الضيوف يشربون الكأس الثاني من الشاي، وكانت الحجرة الخارجية الكبيرة دافئة بمجامر النار وأنفاس الضيوف وحرارة الحديث.. ويبدو أن الضوء واللفظ المرتفع قد جذبا الطفل فلم يدخل الدار ليأكل ويستدفئ، ولكنه دخل مباشرة إلى الحجرة الخارجية. وحين بدا في الباب صغيرا ومبتلا كالككتوت كان شكله غريبا. وساد الصمت، وتطلع إليه الضيوف. كان يحمل كراريسه تحت سترته الصغيرة المشتراة من الخردة، وأقلامه في جيوب السترة، أما حقيبته الصغيرة فقد أدخل فيها رأسه على شكل قبة عسكرية، وكانت وجنتاه الصغيرتان مبتلتين بالمطر والدمع، كان يبكي، من البرد فيما يبدو، وربما دون أن يشعر، وفي البداية ضحك البعض وهم ينظرون إلى هيئته الغريبة، وعلى الخصوص إلى الحقيبة القبيحة، وسرعان ما استجاب الطفل وأخذ يضحك هو الآخر.. أحس بالدفء والأنس ورأى الشاي والزربية الجديدة، فتقاطرت كركرته الصغيرة كالزجاج المكسر على ذقنه المبتلة والمحبة من البرد، وارتفع الضحك في الحجرة الطويلة الممتلئة الدافئة، وقفز الحاج عبد القادر وهو يضحك قائلا: "القاضي وصل". حمل ابنه الصغير ونزع حذاءه وسترته ثم خلع أحد جلبابه الصوفيين وألبسه ابنه، فضاع فيه الطفل وازداد انكماشاً في حضن أبيه. حمله أبوه إلى رأس الحجرة وأجلسه إلى جانبه وهو يقول: "تسخن وتشرب الشاي ثم تسلم على الضيوف وتقبل أيديهم" وناولته كأس

الشاي فتلفقه الطفل ملهوفاً، واستأنف الضيوف حديثهم ونسوا الطفل تماماً... تحدثوا أولاً عن المدارس والأطفال والمساجد، وكرر سي بن علي ملاحظته الدائمة أن على الأطفال أن يقضوا عطلهم المدرسية في المساجد ليتعلموا القرآن، وأن الأمر إذا استمر على هذه الحالة فلن يمر جيل واحد حتى يكون القرآن قد رفع... واستلطف بعض الشرفاء ولاحظ أحد المتطفلين أن ما يتعلمه الأطفال في المدارس لا يزيد عن: "معزة - قط - فار" وهو لا يعرف ما معنى ذلك كله، وإلى أين يمكن أن يصلوا به. وحاول سي عمر المشرف على المستوصف الطبي في السوق أن يدافع عن المدارس، وتحدث أحدهم عن القرن 14، وروى أحد الشرفاء حديثاً نبوياً شريفاً، ثم عم الصمت وانتظر الجميع أن يبدأ أحدهم العودة إلى حديث الأرض... وكان الشريف سيدي عبد الكبير هو الذي فعل ذلك.. رفع مسبحته قليلاً ونظر إلى حمادي بابتسامة صغيرة وقال: "إيوا أحمادي ماذا قلت؟ المخزن أحسن أو المفاهمة؟" فانطلق الجميع يتكلمون، ورد حمادي مغمماً، أما الحاج فقد كان يتابع الحديث بانتباه مركز، ويدرس الأجوبة، ويقرأ ما خلفها. ولكنه كان يخلع على وجهه سحنة اللامبالاة، وابتسم ساخراً حين يتكلم خصمه، وإن كان يحرص على أن لا يجعل ابتسامته جارحة، كان يريد أن يراها الناس وأن يقرأها، ولكن دون أن يحكموا عليها حكماً نهائياً، وكان الجميع يتفقون على كلام سيدي عبد الكبير حين يكون عاما كأن يتحدث مثلاً عن أن المخزن بحر الداخل إليه مفقود والخارج منه مولود، أو أن يتحدث عن المحبة والإخاء والإسلام وحب آل البيت، ولكنه حين يدخل في صلب الموضوع تتقاطر التفصيلات من جانب حمادي والحاج عبد القادر من هنا وهناك، وتتبعث النزاعات القديمة والجديدة والخصومات والحرب وشبر الأرض والمحاصيل والأقسام والتأكيدات والتهديدات حتى ليكاد المراقب الأجنبي يضيع ويحكم نهائياً بلا جدوى الحديث كله، ولكن سيدي عبد الكبير كان يعرف الرجلين جيداً، وربما كان قد انتهى منذ زمن إلى نتيجة معينة يحملها عليها. وفي غمرة الحديث، وبينما كان الحاج عبد القادر يمد يده اليمنى شارحاً أو مهدداً أم متسامحاً، وصوته يلعلع في الفضاء الدافئ وسط غمغات الاستنكار أو التأييد وقف الطفل دون أن ينتبه إليه أحد.

خلع أولاً جلباب أبيه ثم باعد بين رجليه، وبهدوء ولا مبالاة، وكأنه وحده تماماً وليس في حجرة مفروشة ومليئة بالضيوف.. بهدوء ولا مبالاة أدخل يده في فتحة سرواله الأمامية وأخرج عضوه الصغير المنكمش وأخذ يبول.. لا يدري أحد ما إذا كان قد قصد ذلك أولاً، ولكنه كان يبول وسط الصينية تماماً، وكانت بعض الكؤوس تمتلئ والرشاش يتطاير على جلباب ولحية سي بن علي ووجوه القرييين من الصينية. عقدت الدهشة ألسنة الجميع، وكانوا ينظرون إلى الطفل دون فهم أو دون تصديق.. الحاج عبد القادر كان أول من استرد وعيه فخطف الطفل بين يديه بسرعة وهو يسب في صوت صارخ متداخل غير واضح كأنه لم يخرج بعد من حالة الدهشة التي عمت الجميع. وتجراً بعض الحاضرين على الضحك، وابتسم الكبار، أما الفقيه سي بن علي فقد كان ينفض جلبابه ولحيته غاضباً في البداية ثم مبتسماً في خجل... ثم ضاحكاً مدارياً بالنظرات وسمع الضيوف صرخات الطفل الحادة من الداخل... وكانوا يعرفون الحاج عبد القادر... ربما قتله.. إنه طفل على أي حال.. ولكن المسألة.. المسألة مضحكة وعجيبة، فكيف فعل الطفل ذلك؟ ولماذا؟ وأخذت التفسيرات والتعليقات تتناقل بين الضيوف، ولكن تفسيراً واحداً لفت انتباه الجميع وأدهشهم.. كان ذلك التفسير الذي أعطاه "الطبيب" سي عمر. قال في حسم "الطفل سكران" هل يمزح سي عمر؟ ولكن وجهه كان جاداً، وهو مؤمن بما يقول، وانتظر أن ينتهي الحاج عبد القادر من مسح الزربية بالماء الساخن، وتبديل جلباب الفقيه، وتغيير الصينية، وبعد أن انتهت ضجة المسح والغسل والتنظيف ودخل الحاج إلى الدار وهو يتعود ويستغفر، تابع سي عمر شرحه فقال إنه لاحظ غرابية حال الطفل منذ دخل، إن إفراغه الحقيقية من الكراريس ووضعها على رأسه كالحقبة، ثم الضحكة الغريبة التي حيانا بها. ثم إنه قلب كأس الشاي على الزربية دون أن يلاحظوا ذلك.. ثم في الأخير هذه ال... هذه المضحكة الأخيرة، وقال سي عمر إنه يرى الكثير من السكرى في المدينة وإن هذا حالهم تماماً.. ثم اقترح أن يشموا رائحة فم الطفل.. وتكلم الجميع ولاحظ بعضهم أن الخمر تباع جهاراً في بعض الدواوير، وحين ذكر الفقيه سي بن علي بأن طباط المدرسة الذي يطبخ الحريرة للتلاميذ في النهار مشهور بالسكر والحشيش ازداد اقتناع الحاضرين بتفسير "الطبيب". وعرضوا الأمر على الحاج القادر فاستغفر الله وبسمل وتعوذ واستنكر ذلك بقوة، ولكنهم حملوه على التفكير في المسألة بعد لأي، وأخيراً أخرج لهم الطفل فشموا فمه واحداً واحداً، وكانوا يشمون فعلاً كما يبدو رائحة غريبة لم يفهموها، وحين قرر "الطبيب" أنها رائحة "البيرة" اقتنع الجميع، وشرح لهم بأن البيرة تضحك شاربها بدون سبب، وأنها (وهمس في أذن جاره حتى لا يخرج أسمع المتحرجين) وفهم الجميع... وفي غمرة الاهتمام الجديد تراجعت قضية الأرض إلى الوراء، وسهل على الشريف سيدي عبد الكبير أن يجد حلاً مؤقتاً قبله الخصمان بسرعة ليتفرغاً مع الناس في مختلف الدواوير لهذه المشكلة الطارئة وخلفياتها الخطيرة...

أما الطفل الذي كاد أبوه يزهرق روحه الصغير تلك الليلة، فإنه سكت عن الصراخ والنشيج تدريجياً، وكفكف دموعه، وبعد أن تعشى واستكان إلى الدفء في جوار أمه التي كانت تنصحه دائماً بأن لا يبول في سرواله، تذكر ما وقع و... وأغرق في الضحك: كخ كخ كخ... ألا تستحي؟ قالت أمه - كخ كخ كخ... وابتسمت الأم وهي تنظر إليه في دهشة ثم أغرقت في الضحك هي الأخرى وهي تشير إليه بسبابتها:

كخ كخ كخ... الشيطان... الله يمسحك... كخ كخ كخ...